أسس الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية

جمال الدين سليماني كياسري[1]

الخلاصة:

تكفّلت هذه المقالة دراسة موجزة لمباني الوحدة بين المذاهب الإسلامية. تبدأ المقالة بتمهيد في ضرورة الوحدة بين الفرق المسلمة. يتلوه بيان معنى كلّ من الوحدة والتقريب والفرق بينهما. ثمّ تدرس مبانى الوحدة وذلك في قسمين:

١- المباني النظرية وهي العقل والآيات والأخبار.

٢- المباني العملية وهي سيرة النبي الأكرم(ص) وأهل البيت(ع). يستمرّ الكلام بتبيين دائرة الوحدة حسب العقل والآيات والأخبار. وأخيراً تدرس المقالة مسألة التقريب باختصارٍ.

الكلمات الرئيسية: مباني الوحدة، دائرة الوحدة، المذاهب الإسلامية، المجتمع الإسلامي، الأمّة الإسلامية.

[1]. باحث إسلامي و خريج المؤسسة العالمية للدراسات الإسلامية في مرحلة الدكتوراه.

نلاحظ اليوم أنّ المجتمعات الإسلامية تخلّفوا عن باقي المجتمعات في حقل العلم والتقنية والرّقي، فهي قد استعبدتها وأخذت بناصيتها إلى حيث شاءت. كانت هذه المجتمعات طيلة عشرات السنين وإلى اليوم غير مستقلّة، وبالتالي عانوا وإلى اليوم يعانون المشاكل أكثر من غيرها. يكفينا ما نشاهده فى مجتمعاتنا من الفقر والحرمان والحروب والإرهاب و... ولا شك أيضاً أنّ الخصومة والتفرقة والاقتتال بين المجتمعات المسلمة من أهمّ الأسباب المؤدّية إلى هذا الوضع المؤلم. ولا طريق إلى التخلّص من هذه العقبات الاّ أن تتكاتف قوى الشعوب المسلمة وتتعاضد أيديهم. فنحن بأشدّ الحاجة إلى دراسةٍ نظرية لموضوع الوحدة وجوانبها، ثمّ المحاولة لتطبيقها في المجتمع.

تمهيد

كنت أتمتم في نفسي لماذا يعيش كثير من المسلمين في تعب وعناء وقد أحاط بهم الجوع والحرمان والاقتتال وسفك الدماء و...؟ لماذا استرقّتهم شعوب غير مسلمة- والإسلام يعلو ولا يعلى عليه – ؟ لماذا لا تستطيع الشعوب المسلمة أن تستوفى حقوقها وتدافع عن نفسها أمام مؤامرات الأعداء؟ فها هو فلسطين احتلّت قبل أكثر من ستين سنة ومازالت محتلّة ولم يتحرّر شبر من أرضها. وهذا هو العراق، لا يمرّ بنا يوم الاّ و نشاهد فيه مشاهد مؤلمة من التفجيرات والعملية الإرهابية التي تقتل الأبرياء وتسفك دماء الأطفال والنساء والكبار وتقطّع أجسادهم. وها هو أفغانستان وباكستان وميانمار والبحرين واليمن ومصر وليبيا وتونس وسوريا ولبنان و... وأوضاعهم السيئة من الفقر والهوان والاستبداد الملمّ بهم وعدم حريتهم و... هذا هو حال الشعوب المسلمة وهم في بلادهم بين الأكثرية المسلمة، فكيف حال الأقلّيات المسلمة بين سائر الشعوب؟ سبحان الله، هل كتب على المسلمين الذّلّة والمسكنة والهوان كما كتب على بني إسرائيل؟ فكيف يقول القرآن وهو الصّادق المصدَّق:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾[1].

ويقول:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

لماذا لا يقدر المسلمون على الذّبّ عن أنفسهم وطرد الأعداء عن بلادهم وإلغاء الدّكتاتوريات من مجتمعاتهم وكسب الحرّية والعزّة والاستقلال والكرامة؟ لماذا يقرّر الأعداء مصير الأمة الإسلامية وهي على ما هي عليه من العدد الهائل والثروة الطبيعية الضخمة –النفط– وما إلى ذالك من الكفاءات العديمة للنظير والاستعدادات الطبيعية والإنسانية؟ وهناك أسئلة أخرى تدعو إلى الوقفة والتأمل في مصير الأمّة الإسلامية ومصالحها.

هناك أسباب متعدّدة يمكن عدّها للإجابة عن هذه الأسئلة كابتعادهم عن الإسلام الحقيقى وترك العمل ببعض التعاليم الدينية و... ومن أهمّ تلك الأسباب، هو التفكّك والانشقاق الموجود بين المسلمين حتى أصبح بعضهم يتولّون الذين كفروا أكثر ممّا يتولّون إخوانهم المسلمين ويظهرون العداء والبغضاء للمنتمين إلى الإسلام بدلاً من أعدائهم. لاتخفى اليوم ضرورة تماسك المسلمين بعضهم البعض وتكاتفهم على من له أدنى خبرة ومعرفة بقضايا العالم المعاصر. فيلزم لأمّة لاترى لها إلا الانصياع تجاه الاستبداد والدكتاتورية العالمية الموجودة ولاتجد لها فرجاً ومخرجاً أن يترك الخصومة والعداء عسى الله أن يرحمها ويفرّج عنها.

---

١. سورة آل عمران، الآية ١١٠.

٢. سورة المنافقون، الآية ٨.

أ.معنى الوحدة والتقريب

الوحدة والتقريب مفهومان متغايران، والنسبة المنطقية بينهما هي العموم والخصوص من وجه، حيث إنّه قد يكون تقريب بين مذهبين بلا وحدة بينهما. وقد تكون وحدة بلا تقريب. وقد تجتمع الوحدة والتقريب. نعم كلّ منهما يكمل الآخر ولايكتمل كلّ من الوحدة والتقريب إلا بمصاحبة الآخر.

تتعلّق الوحدة على الأكثر بالعمل حيث إنّ المطلوب فيها هو تكاتف القوى والقدرات وتراكم الاستعدادات للوصول إلى هدف مشترك فى الواقع. أمّا التقريب يتعلّق بساحة النظر والفكر، حيث إنّ المقصود منه هو رفع الحجب والموانع الفكرية الحائلة بين مذهبين وبالتالي تقريبهما نظرياً وإيصالهما إلى نقاط مشتركة. فالتقريب خير سبيل للعثور على الوحدة المطلوبة وأقرب طريق لاقتناع أبناء الأمّة على السلوك نحو الوحدة. وليس التقريب بمعنى جعل مذهب خاصّ معياراً وإلزام المذاهب بموائمة نفسها به ولا أن ننسى الخلافات بين المذاهب وتأسيس مذهب جديد على أساس المشتركات ولا المقصود منه الحرّية في اختيار المذاهب، وإنّما هو تعامل نظري بنّاء بين المذاهب على أساس المشتركات واحترام الآخرين للوصول إلى النقاط المشتركة أكثر فأكثر.

ب.وحدة المذاهب الإسلامية

لا شكّ أنّ الإسلام دين الوحدة بمعنى أنّه اهتمّ بالوحدة كثيراً ودعا إليها بمختلف الأساليب البيانية والعملية. فللإسلام برنامج متكامل لتحقيق الوحدة بين أتباعه على أساس الاعتصام بحبل الله تعالى والانطلاق الجماعي إليه. فهو يذكّر أبناءه حسنات الوحدة ومعطياتها ويقلع الأوهام المؤدّية إلى الفرقة والخلاف؛ كالشعوبية والقبلية واختلاف اللون واللسان من دائرة قِيمِه ويبدّلها قيماً إنسانية؛ كالعلم والجهاد والتقوى و....

والبحث الوافي لمسألة الوحدة يتطلّب مجالاً واسعاً ودراسة شاملة، فنحاول أن نركّز على نقطتين أساسيتين في هذه الوجيزة وهما مباني الوحدة ودائرة الوحدة.

الأول: مباني الوحدة

نعني بمباني الوحدة: الأسس التي تدلّ بنحو على مطلوبية الوحدة والائتلاف وتنفي الشقاق والفرقة. وهي تنقسم إلى المباني النظرية والعملية وسنشير إلى كلّ منهما على حدة.

١-المباني النظرية للوحدة

١-١- العقل

لا شكّ أنّ ضرورة الوحدة من الأحكام البديهية التي يستقلّ بها العقل ولا يتردّد في هذه القضية بعد تصوّر طرفيها. فالعقل يحكم بلزوم تحقيق الوحدة بين كلّ من يشارك الآخر في أمور تهمّ الطرفين، وذالك لإنّ كلّ طرف يسعى إلى تحقيق تلك الأهداف، والعقل يقضي بتكاتف الأطراف المعنية بها وتعاضدها لتسهيل إنجاز الأهداف المطلوبة. فالشقاق والفرقة من أهمّ الأسباب المؤدّية إلى الفشل وفوات الغايات المقصودة أو تأجيلها.

١-٢- المباني النقلية

إنّ القرآن دعا إلى الوحدة والتلائم وحذّر عن الفرقة والنزاع أشدّ تحذير. هذا ممّا لا ريب فيه. كذالك الحال في الأخبار المأثورة عن النبي(ص) وأهل البيت عليهم السلام. يمكن القول: إنّ الوحدة من أعظم ما اهتمّ به القرآن والأخبار وأكّدا عليه وذالك لما فى الوحدة وتلائم المجتمع من الآثار الإيجابية على جميع نواحى الحياة الفردية والاجتماعية. ولا بأس بالإشارة إلى بعض الآيات والأخبار الحاثّة على الوحدة وتلائم أبناء المجتمع الديني. قال الله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

نلاحظ في الآية الدعوة إلى الوحدة وترك الفرقة بأتمّ بيان، حيث إنّه تعالى أمر أولاً: بالاعتصام بحبله تعالى ونهى عن التفرقة، فجمع بين الأمر بالوحدة والنهي عن التفرقة في موضع واحد. وثانياً: تعتبر الآية الاعتصام بحبل الله تعالى معياراً لتحقيق الوحدة في المجتمع الإسلامي، وبذلك يظهر إلغاء أي شيء آخر ليكون معياراً وملتقى لأبناء المجتمع. وثالثاً: بين أنّ تأليف قلوب المسلمين بعد أن كانوا أعداءً من نعمه تعالى التي تستحق الذكر والشكر. ورابعاً: ذكر أنّهم قبل أن يكونوا إخواناً وحين كانوا أعداءً، كانوا على شفا حفرة من النار حتى أنقذهم الله تعالى بتأليف قلوبهم وجعلهم إخواناً. وأخيراً تعتبر الآية الاعتصام بحبله تعالى وتحقّق الوحدة، اهتداءً حصل نتيجة لتبيين الآيات الإلهية وبالتالي تكون الفرقة وانفصام المجتمع ضلالاً وغياً.

يقول سيد قطب في بيان الآية:

« فهي أخوة تنبثق من التقوى والإسلام ... أساسها الاعتصام بحبل اللّه وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة ... وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة، وما كان إلا حبل اللّه الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة اللّه إخواناً، وما يمكن أن يجمع القلوب إلا

[1].سورة آل عمران: الآية١٠٣.

أخوة في اللّه، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية والثارات القبلية والأطماع الشخصية والرايات العنصرية»[١].

وقال سبحانه:

﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ﴾[٢].

تحذّر الآية عن التفرقة والاختلاف أشدّ تحذير وتعتبر الآيات التي نزلت من عند الله سبحانه ملاكاً لاعتصام الجميع به وتهدّد هؤلآء الذين تفرّقوا بعذاب عظيم.

وقال تعالى:

﴿وَ أَطيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ ريحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرينَ﴾[٣].

تأمّلوا كيف تشيد الآية بالوحدة المتجلّية بإطاعة الله والرسول وكيف تنهى عن النزاع، حيث إنّه يؤدّى إلى الفشل وذهاب الريح؛ أي الشّوكة والعزّة والقدرة. ولا يتأتّى جميع ذلك إلا بالصبر، فإنّه المفتاح لترك النزاع وتأليف القلوب وإطاعة الله والرّسول. والآية تدلّ بوضوح على أنّ المعيار في تحقيق الوحدة المنشودة هو الله ورسوله. يقول سيد قطب في تفسير الآية:

«فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس للّه ورسوله، انتفى السبب الأول الرئيسي

---

١. في ظلال القرآن، ج١، ص٤٤٣.

٢. سورة آل عمران: الآية١٠٥.

٣. سورة الأنفال: الآية ٤٦.

للنزاع بينهم- مهما اختلفت و جهات النظر في المسألة المعروضة- فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها»[١].

وقال عزّ من قائل:

﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ﴾[٢].

يحثّ سبحانه فى الآية على التعاون والتشارك فى البرّ والتقوى، ولايتأتّى ذلك إلا بالوحدة والتلائم وترك النزاع والخلاف. أمّا التعاون على الإثم والعدوان، فتنهى عنهما الآية الشريفة. فيظهر أنّ الوحدة والتعاون ليست مرغوبةً فيها بأي حالٍ وإنّما ملاك الوحدة يقيمها ويفصل بين صحيحها وسقيمها.

وقال تعالى:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَ نِساء﴾[٣].

الآية تبين أنّ الناس جميعاً خلقوا من أصل واحد ولا فضل لأحد على أحد فى أصله ونسبه. تظهر أهمية هذا التعليم عندما ندرك أنّ التمايز باللون واللسان والعشيرة والنسب و.... من أعظم أسباب الفرقة والخلاف بين الشعوب. والقرآن يقلع هذه التمايزات الوهمية الجزافية ببيانات وافية ويخطّئ فكرة الأفضلية بهذه الأسباب التى أوجدها الله سبحانه من حكمته وعلمه، كما قال تعالى:

---

١. في ظلال القرآن، ج٣، ص١٥٢٩.

٢. سورة المائدة: الآية ٢.

٣. سورة النساء- الآية ١.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾[١].

فلا يبقى مجال ليتكبّر أحد على آخر بأصله ونسبه وماله ولغته ولونه وما إلى ذلك من نعمه سبحانه، فانحصرت الأفضلية في التقوى ولا أحد يعرف قدر التقوى الذي يمتلكه هو وغيره، فلا مجال للتمايزات في المجتمع الإسلامي. وهذا يؤدّى إلى تماسك الجميع وتكاتفهم فى تحقيق الأهداف المفروضة عليهم.

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾[٢].

نتابع بيان الآية من التفسير القيم الميزان؛ حيث يقول:

« فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الإيمان هو الاجتماع على طاعة الله و رسوله- و إن شئت فقل على طاعة رسوله- فإن ذلك هو الحافظ لوحدة سبيلهم ... و الآية تنهى عن معصية الله و شق عصا الاجتماع الإسلامي»[٣].

ويذكر القرآن حكاية عن هارون النبي(ع) حين وبّخه أخوه بتقصيره أمام ما فعله السامري وإضلاله الناس:

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[٤].

---

١. سورة الحجرات- الآية ١٣.

٢. سورة النساء- الآية ١١٥.

٣. الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص٨٢.

٤. سورة طه-الآية ٩٤.

فوجّه عمله بأنّه خشى من الشقاق والفرقة بين بنى إسرائيل. هذا يدلّ على أهمية الوحدة في المجتمع الديني، حتى أنّ نبياً يستند إليه في سلوكه أمام الانحراف الواقع والنبى موسى(ع) يقبل هذا العذر منه.

يصف سيد قطب هذا المشهد بقوله:

« و هكذا نجد هارون .... خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً، بعضها مع العجل، و بعضها مع نصيحة هارون. و قد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل و لا يحدث فيهم أمراً»[١].

وقال سبحانه خطاباً إلى الأمة الإسلامية جميعاً:

﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٢].

فبين أنّه تعالى أراد من جميع الأمّة التوجّه نحو هدف واحد وسلوك منهج واحد حتى تتحقق الأمة الواحدة بمعناها.

ويمدح الله سبحانه المقاتلين في سبيله ويذكر الوحدة من ميزاتهم، كأنّهم بنيان مرصوص.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٣].

ثمّ إنّه تعالى أمر الجميع بإطاعته وإطاعة الرسول وأولي الأمر وعين الرسول مرجعاً عند النزاع والخلاف. ولا يخفى دور هذه المرجعية في توحيد صفّ الأمّة وإحلال الوحدة فيها. قال تعالى:

---

١. في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣٤٨.

٢. سورة الأنبياء-الآية ٩٢.

٣. سورة الصف-الآية٤.

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وَ أَطيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1].

فإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر والرّدّ إلى الله والرسول من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر. والنزاع والفرقة وعدم الاجتماع حول هذا المحور، ينافي الإيمان بالله واليوم الآخر.

هذه جملة ممّا ورد في كلامه سبحانه وهي تدلّ بوضوح على كون الوحدة من أعظم فرائضه سبحانه، وقد شرّعه سبحانه لاستيفاء الغايات التي لا تكتسب إلا عبر التعاطي والتواصل بين أبناء الأمّة.

أمّا الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام في الحثّ على الوحدة وتلائم المجتمع، فهي أكثر من أن تحصى فى هذه الوجيزة. ونكتفي هنا ببيان نماذج يسيرة منها، وهي تدلّنا بوضوح على أهمية هذه المسألة فى ثقافة أهل البيت عليهم السلام. فها هو الإمام علي عليه السلام يحدّثنا عن أمم ذلّت بعد أن كانت عزيزة وذالك لما دبّ فيهم من الفرقة والخلاف، ثمّ يحذّرنا منها أشدّ تحذير:

«فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْه فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَت الْفُرْقَةُ وَتَشَتَّتَت الْأُلْفَةُ وَاخْتَلَفَت الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفينَ وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبينَ وَقَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِه وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِه وَبَقِي قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ. فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام ... تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِي كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا

[1]. سورة النساء-الآية٥٩.

إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ وَمَهَافِي الرِّيحِ وَنَكَدِ الْمَعَاشِ فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ أَذَلَّ الْأُمَمِ داراً وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً»[١].

ومنها الروايات التي تؤكّد على ضرورة المواصلة بسائر المسلمين ممّا يدلّ على ضرورة الترابط والتعاطي بين أتباع المذاهب الإسلامية. روى معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السلام:

« قُلْتُ لَهُ كَيْفَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَصْنَعَ فِيمَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا وَ بَيْنَ خُلَطَائِنَا مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ لَيْسُوا عَلَى أَمْرِنَا قَالَ تَنْظُرُونَ إِلَى أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَقْتَدُونَ بِهِمْ فَتَصْنَعُونَ مَا يَصْنَعُونَ فَوَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَعُودُونَ مَرْضَاهُمْ وَ يَشْهَدُونَ جَنَائِزَهُمْ وَ يُقِيمُونَ الشَّهَادَةَ لَهُمْ وَ عَلَيْهِمْ وَ يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ إِلَيْهِمْ»[٢].

ومنها الروايات التي تؤكّد على أنّ المؤمنين متماسكون متعاضدون ولا غنى لواحد منهم عن الآخرين. فقد روي عن النبي(ص):

«مَثَلُ الْمُؤمِنينَ فيما بَينَهُم كَمَثَلِ البُنيانِ يُمسِكُ بَعضُهُ بَعضاً وَ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً»[٣].

وقال(ص):

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ فِي تَوَادِّهِمْ وَ تَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٤].

---

١. نهج البلاغة، خ١٩٢.

٢. الكافي، ج٢ ص٥.

٣. عوالي اللآلى، ج١ص٣٧٧.

٤. بحارالأنوار، ج٥٨ص١٥٠-هكذا ورد في الكتاب. والظاهر أنّ الصحيح أن يكون المؤمنين بصيغة الجمع.

وقد نهى النبي(ص) أن يهجر المسلم أخاه:

«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةٍ»[١].

ثمّ إنّه(ص) جَعَلَ مرجعاً لجميع المسلمين في جميع العصور ليرجعوا إليه فيما اختلفوا فيه وما اشتبه عليهم ويردّوا إليه ما تنازعوا فيه؛ ذاك هو كتاب الله وأهل بيته.

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ أَهْلَ بَيْتِي عِتْرَتِي»[٢].

دلّ ذلك على أنّه(ص) لم يكتف بالدعوة إلى الوحدة ولم يهمل ميزان الوحدة بين أبناء الأمّة، فإنّ الوحدة المنشودة للدين هي ما تتحقق بميزان الحق وليس كلّ وحدة مرغوبة فيها. فالنبي(ص) بجعله القرآن والعترة المرجع الأول للمسلمين جميعاً، هداهم إلى المحور الذي يدورون حوله؛ فيرجع إليه المتقدم والمتأخر.

ونجد في المجامع الروائية أضعاف هذه الروايات وهي جميعاً تحثّ على التعاون على البرّ والتقوى وتوحيد الصفوف بل القلوب في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وترك الفرقة والشقاق التي تضرّ بمصالح الأمّة وكرامتها وتمكّن الأعداء منها.

وبعد ذلك كلّه، يظهر من التأمّل في التشريعات الدينية أنّ كثيراً منها يهدف إلى تحقيق الوحدة والألفة بين أبناء الأمّة. فها هي صلاة الجماعة والجمعة والعيدين و.... نجد فيها من توحيد الصفوف ما لا نجده في غيرها. لاريب أن مثل هذه التشريعات لها غايات وأهداف اجتماعية مطلوبة. فصلاة الجماعة والجمعة و.... لايراد منها الجانب الروحي فحسب، وإنما يقصد منها بعد ذالك اجتماع آحاد الأمّة في مجمع واحد، فيحصل بينهم لقاءات وتعارف

---

١. وسائل الشيعة، ج١٢ص٢٦٢.

٢. الكافي، ج١ص٢٩٣.

البعض ببعض، فيطّلع الجميع على ما يجرى في جغرافيا العالم الإسلامي وتنتقل هذه المعلومات إلى كلّ المنتمين إلى هذه الأمّة، فتخطّط له حسب المقتضيات وحوائج المجتمع ويهدي البعضُ الآخرَ على مصالح الأمة ويطلعه على آخر التطوّرات التي حصل عليها وأيضاً يدرس الجميع مؤامرات الأعداء وخططها للهيمنة على الأمّة ثقافياً واقتصادياً وسياسياً و.... وطرق المواجهة أمام مكائد الأعداء. هذه جملة من معطيات هذه التشريعات وهناك أضعاف وأضعاف هذه تحصل فى كل سنة للأمّة المسلمة من خلال هذه الندوات الشرعية. ولكن مع بالغ الأسى والأسف قد فاتت اليوم هذه المنافع والمصالح إلا شذرات منها، حتى أصبحت الأمّة الإسلامية اليوم أضعف شعوب العالم وأذلّها، فمكّنت الأعداء من رقابها وقدّمت إليهم ثرواتها المادية والمعنوية وسلّطت الدكتاتوريات عليها وسلبت الحرية والكرامة والعزة والاستقلال من نفسها. وما ذلك إلا نتيجة لقصورها فى واجبها والشقاق الذى دبّ فيها. وقد أصبحت اليوم مصالح الأمّة الإسلامية لعبة في أيدي خصومها يلعبون بها ويديرونها أينما دارت مصالحهم. نعم لخواص الأمة المسلمة وكبرائها، دور أساسي في هذه الكارثة الحالّة بها، وذلك لعدم القيام بمسئوليتهم تجاه دين الله سبحانه وتجاه الأمة.

هذه هي الصلاة من أعظم العبادات وأهم الفرائض، يخلو فيها الإنسان بربّه ويناجيه فرداً ولاتقبل إلا بالإخلاص والطمأنينة وحضور القلب. مع هذا كلّه لم تخل هذه العبادة عن أبعاد اجتماعية متعلقة بمصالح الأمة، فالمسلمون في جميع أقطار الأرض يتجهون عند الصلاة إلى نقطة واحدة ويتمحورون حولها وهي بيت الله سبحانه، وهذا بدوره يجعل المسلمين جميعاً ذوي شعور واحد بحيث يحسّ الكلّ أنّه يتعلق بحشد كبير إنساني هو الأمّة الإسلامية وليس هو فرداً في حياته، فيدمج مصالحه بمصالحها ويذهب منه فكرة الفصل والشقاق، وهكذا

يتربّى آحاد هذه المجموعة الضخمة بهذه التربية ويتعوّدون على المنهج الاجتماعي، حتى في سلوكه نحو الله سبحانه المتجلي في التوجّه إلى قبلة واحدة.

أمّا الحج، فالحديث عنه لا يستوعبه هذا المجال وأبعاده الاجتماعية أكثر من أن تُعدّ في هذه الصفحات القليلة، فقد اجتمع فيه الفرد والمجتمع ومنافع الدنيا ومصالح الآخرة. لنتأمّل كيف دعى المسلمون جميعاً في أرجاء الأرض إلى ملتقى واحد وفي موعد واحد. ثمّ أمرهم أن يخلعوا ما لبسوه وما تزينوا به ويلبسوا زي الإحرام ويترك جميع ما يسبب ميزة بينهم، ويتوحّدوا بذالك لا فرق بين أحد وآخر ولا يتميز فيه الغني والفقير. ثمّ أمروا جميعاً بأداء شعائر الحج وهى في أوقات محددة وأماكن معينة وهي توحّد صفوفهم وسلوكهم بأحسن ما يمكن. فهل هناك سبيل أفضل لتحقيق الوحدة والتماسك الاجتماعي من الحج وهل نجد أسلوباً أقوى ممّا تضمنّه الحج في إحلال الترابط الاجتماعي؟ وهل هناك سبيل خير من تعاليم الحج لإنجاز مهامّ المجتمع الإسلامي؟ نتعلّم ذلك من مدرسة الإمام الخميني العظيم الذي أحيا هذا الجانب المغفول من فلسفة الحج، فقال:

« وان من واجبات المسلمين الكبرى دركهم لحقيقة الحج، فالذي تم الترويج له لحد الآن من قبل غير الواعين أو المغرضين أو المتسلطين بمثابة فلسفة الحج هو أن الحج عبادة جماعية وزيارة وسياحة. فما شأن الحج بما ينبغي لنا أن نعيش وسبل النضال وكيف يتسنى لنا الصمود بوجه العالمين الرأسمالي والشيوعي!. وما شأن الحج بوجوب استعادة حقوق المسلمين والمحرومين من الظالمين!. ما شأن الحج بالتفكير بسبيل التصدي للضغوط النفسية والجسيمة التي يتعرض لها المسلمون. ولكن الحج ليس مجرد حركات وأعمال وألفاظ. الحج مركز المعارف الإلهية و يجب استلهام سياسة الإسلام في كافة مناحي الحياة منه. ومناسك الحج هي مناسك الحياة. ولهذا ينبغي لمجتمع الأمة الإسلامية، على اختلاف اعراقه

و انتماءاته القومية، أن يكون إبراهيمياً كي يلتحق بركب أمة محمد(ص) ويتوحد معها ويصبح يداً واحدة .. الحج تنظيم وتمرين وبلورة للحياة التوحيدية .. الحج ميدان تجلي ومرآة تعكس مؤهلات المسلمين وقدراتهم المادية والمعنوية. لا شك أن الحج الذي يفتقد للروح والخالي من التحرك والثورة. الحج الذي لا يتضمن البراءة، الحج الخالي من الوحدة، والحج الذي لا يقود إلى هدم الكفر والشرك؛ ليس حجاً»[۱].

ونقرأ فى كتاب « صهباي حج»:

« يسمع من ذلك البناء الإلهي نداء الوحدة والانسجام، كما أنّ الكعبة عماد الاستقامة أمام الشرك والإلحاد وهي لسان الحرية أمام أي استعباد واستكبار»[۲].

۲-المباني العملية للوحدة

المقصود من المباني العملية للوحدة هي ما يستفاد من سيرة النبي(ص) وأهل بيته الكرام عليهم السلام، فهي مشحونة بالدروس والعبر التي تساعد في تبيين نظرية الوحدة وبالتالي تسيير الأمّة نحو الفوز والسعادة. إنّ النبي(ص) وبعد ارتحاله إلى المدينة عقد المعاهدات والعقود الأخوية بين الطوائف والقبائل لغاية ازدهار قوّة المجتمع الإسلامي وتكثّف قدراته. هذا من أبرز ما يؤدّي إلى الوحدة والتّلائم بين أبناء الشعب. فالنبي(ص) حاول من خلال إيجاد هذه العلاقات، رفع الحجب والعوائق التي تحول دون عثور المجتمع على الوحدة المطلوبة ويؤدّي إلى تفكّك المجتمع وانشقاق قدراته. فالنبي(ص) -وهو أعرف من الجميع بمصالح الأمّة- جعل من مهامّه الرئيسية- حين استقرّ فى المدينة- إيجاد الصداقة بين المنتمين إلى الإسلام. فهذان هما الأوس والخزرج، فقد دام النزاع بينهما أكثر من قرن لم

---

۱. صحيفة النور، ج۲۱، ص۷۸.

۲. جوادي الآملي، عبدالله، صهباي حج، ص۲۳۲.

يحكم بينهما إلا السيف والقتال. فقد استطاع النبي(ص) وببركة الإسلام أن يؤاخى بينهما ويدفع العوائق التي غزلها الجهل والشرك بينهما. وهؤلاء هم الأنصار والمهاجرون أسلموا جميعاً فصارت أهدافهم واحدة ومصالحهم مشتركة بفضل الدين الإسلامي الحنيف، فانتهز النبي(ص) هذه الفرصة الثمينة وآخى بينهم- اثنين اثنين- وبذلك شكّل النبي(ص) أقوى قوة إيمانية متماسكة تنتهج منهجاً واحداً وتسير نحو غاية واحدة. إنّ اندماج المنافع والمضارّ لدى مجموعة إيمانية ذات إرادة صلبة، من أحسن الطرق لتكثيف قدراتهم وقلع الحجب الوهمية من بينهم. فخلاصة القول إنّ النبي(ص) استطاع أن يحقق الوحدة والأخوّة الإسلامية بين المسلمين ويحرسهم من الأخطار التي تهدّدهم جرّاء الانفصام والانشقاق. فقد روى عنه(ص):

«المسلم أخو المسلم و المسلمون إخوة يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم و يرد عليهم أقصاهم»[1].

من جهة أخرى نرى فى سيرته أنّه(ص) بدّل المعايير الوهمية التي تتفاخر بها القبائل والأشخاص؛ كالعنصرية والنّسب والقبيلة واللّغة واللّون والمال والمنزلة الاجتماعية و.... بمعيار واحد هو تقوى الله سبحانه وتعالى. فأكّد مراراً ومراراً أنّه ليس الكرامة والفضل في الإسلام إلا بالتّقوى، أمّا غيرها ليس إلا أوهاماً وتسويلات شيطانية خادعة. فكان(ص) يسوّى بين الفقير والغني وبين العرب والعجم والأبيض والأسود والقوي والضعيف والمولى والعبد. وهكذا لم يكن أحد من المسلمين يظنّ أنّه أعلى منزلة عند النبي(ص)، لماله أو نسبه أو طائفته أو.... ولم يكن الضّعاف يظنّون أنّه(ص) يحقّرهم لسوء حالهم. ولم تكن هذه السيرة منطلقة من منفعة تكتيكية، بل انطلقت من صميم التعاليم الدينية التي لاتفرّق بين إنسان

---

١. شرح نهج البلاغة، ج١٧ ص٢٨١، اقتباساً من القرآن الكريم.

وإنسان وتقلع جميع الفروقات والميزات التي لا تستند إلى الله سبحانه ولا تدع سبباً للكرامة إلا تقوى الله سبحانه.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾[١]

ففي هذه الساحة نراه(ص) ينصب البلال الحبشي الأسود الذي كان عبداً قبل ذلك، مؤذّناً خاصاً له ويكرم سلمان العجمي وينزله منزلة عالية ويجعل الكلّ عنده سواء ويثقّف الناس على هذه الثقافة القيمة، ويعلن بصراحة إلغاء هذه القيم الخيالية وتبديلها بالقيم الإلهية المتعالية. فيا للعجب كيف يسهّل النبي(ص) سبيل التكاتف وتعاون الجميع حول محور واحد وإلى غاية واحدة، فيجذب إليه ما ينفعه ويدفع عنه ما يضرّه. قال(ص):

«أيها الناس، إنّ ربّكم واحد و إنّ أباكم واحد كلّكم لآدم و آدم من تراب إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم و ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتّقوى»[٢].

فقد استطاع النبي(ص) من خلال نضاله هذه التمييزات الوهميةَ والعنصرية ومن جهة أخرى تكريم الطبقات الضعيفة المحرومة، استطاع من تأليف قلوب عدد غفير من الناس الذين ظلّوا يعيشون تحت سيطرة الطغاة الظلمة ولايجدون ملجأ تسكن إليه قلوبهم، فكانت صرخة الإسلام تهزّ مشاعرهم وتبعثر أمانيهم. ومن ثمّ تشكّلت وحدة اجتماعية وسياسية تتمحور حول النبي(ص). وبذالك أصبح المجتمع الإسلامي صفّاً كأنّه بنيان مرصوص يزداد كلّ يوم ازدهاراً وغضارة ونموّاً، كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار.

---

١. سورة الحجرات: الآية ١٣.

٢. تحف العقول، ص٣٤.

أما أهل البيت عليهم السلام، فقد ساروا فى نفس المسار الذي سار فيه النبي(ص) بلا فرق وميزة. فنرى فى سيرتهم أنّهم كانوا يهتمّون بضرورة الوحدة بين الأمّة أكثر من اهتمامهم ببعض جهات دينية أخرى.

هذا هو الإمام علي عليه السلام الذي تجرّع الغصص وكظم الغيظ وصبر واحتسب عند الله وفي الحلق شجى وفي العين قذى طيلة سنوات. يصف الإمام ولعه إلى الوحدة بين اللمسلمين بقوله:

« وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين وأن يعود الكفر ويبور الدين لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه»[١].

كما يقول:

« فرأيت أنّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثو عهد بالإسلام»[٢].

يصف الشهيد المطهري هذا العمل العظيم من الإمام عليه السلام مندهشاً أمام صبره المستمر خلال خمسة وعشرين عاماً:

« يجب القول: إنّ ما أوجب على الإمام أن يطيق ذاك التعب القاتل، هو وحدة صفوف المسلمين وعدم التفرقة بينهم. هل يصدّق أنّ شاباً في الثلاثينات من عمره بلغ من البصيرة والإخلاص وضبط نفسه إلى حد يقدر على اختيار سبيل ينتهى بحرمان نفسه؟»[٣].

---

١. نقله ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة، ش خ١١٩.

٢. المصدر السابق

٣. سيري در نهج البلاغة، ضمن مجموعة الآثار، ج١٦، ص٤٨٧.

ولم يكن هذا كلّه عن وهن وضعف منه عليه السلام وإنّما كان منطلقاً من تعاليمه الدينية ومهمّته الإلهية التي تأمره أن يصبر ويحتسب أمام ما يرى من العوج في تراث النبي(ص)، فيرى القيام والثورة ضدّ الكوارث التي ألمّت بالمجتمع الديني من داخله أخطر وأضرّ على مصالح الأمّة، لأنّه يفتح الطريق لأعداء الأمّة الذين يتربّصون بها الدوائر وينتظرون الفرصة لينتهزوها ويصطادوا من الماء العكر. فهو عليه السلام يعتبر الوحدة منشأً لكلِّ خير والفرقة منشأً لكلِّ شرٍّ ويقول:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ»[١].

وكان حريصاً على ألفة الأمّة وتوحّدها وقد أثبت ذالك بفعله. يقول عليه السلام فى كلام له خطاباً إلى أبى موسى الأشعري:

«وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ (ص) وَأُلْفَتِهَا مِنِّي أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ وَكَرَمَ الْمَآبِ»[٢].

التّأمّل في سيرة الإمام عليه السلام يهدينا إلى منزلة حقيقة الوحدة في رؤيته عليه السلام التي تفوق منزلة كثير من أجزاء منظومة الدين. فكان الإمام عليه السلام يساهم الأمّة في مصالحها ويعينها عند الحاجة ولا يقعد عن قضايا الأمّة الإسلامية، بل يقدّم كلّ طاقاته فى سبيل حلِّ ما حلَّ بها من أزمات ومشاكل. فأصبحت سيرة الإمام عليه السلام نموذجاً مثالياً لجميع أبناء الأمّة عبر الأعصار، وهي اليوم من أعظم ما تحتاج إليها الأمّة المحمّدية لتسترجع إليها عزّها وكرامتها وشرفها الذي سُلِب منها.

---

١. نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

٢. نهج البلاغة، رسالة ٧٨.

وهذا بالضبط ما نراه في سيرة سائر الأئمّة الهداة عليهم السلام الذين نصبهم النبي(ص) محوراً يوحّد صفّ الأمّة ويرفع الشقاق والفرقة منهم. وكان الأئمّة عليهم السلام يوصون المسلمين بالوحدة ويمشون على نفس الطريقة التى وصّوا بها أبناء الأمّة.

يمكن عدّ هذه النقاط كنماذج من سيرتهم لخلق الوحدة بين أبناء الأمّة:

أ.التأكيد على محورية القرآن في ما يعرض الأمّة من الحوادث والنزاعات و....

ب.التأكيد على حفظ السنّة النبوية التي هي مفسّرة للقرآن.

ج.سيرتهم في التعامل الحسن مع سائر المسلمين من أتباع الخلفاء والمذاهب الإسلامية.

د.أمر الشيعة بالتعامل الإيجابي مع المذاهب الإسلامية جمعاء، كعيادة مرضاهم وتشييع موتاهم والإحسان إليهم و....

فالأئمّة عليهم السلام وبالرغم من نضالهم الدائم، لم يسيروا إلى تحقيق الشقاق والفرقة بين شرائح الأمّة وعامّة الناس، بل سعوا إلى تقريبهم وتأليف قلوبهم وزرع الوحدة في أرجاء المجتمع جميعاً.

وهنا يطرح سؤال وهو: أنّ هذه السيرة منطلقة من حكم أولي أو هي حكم ثانوي فرضته ضرورات المجتمع الإسلامي ومصالحه؟ فعلى الأوّل يدوم هذا الحكم كسائر الأحكام المشرّعة الأوّلية، وعلى الثاني يرفع هذا الحكم بارتفاع مايقتضيه من ضرورات؟

الذي يظهر من أقوالهم وسيرتهم، هو كون الوحدة حكماً أوّلياً، لا حكماً ثانوياً تكتيكياً محدّداً بالضرورات. فإنّ الحثّ البالغ والتأكيد التّام على تحقيق الوحدة بين أبناء الأمّة، يهدي إلى ضرورة إحلالها في المجتمع دائماً وعدم اختصاصها بحال دون حال ولا بزمان دون زمان. نعم، يمكن القول: إنّ بعض مراتب الوحدة بين الأمّة مع من هو خارج منها حكم

ثانوي وتكتيكي تقتضيه بعض الضرورات المحدّدة والمصالح المشتركة، فتنتفي هذه الوحدة بانتفاء مقتضياتها.

الثاني: دائرة الوحدة

بعد أن تبينت أهمية الوحدة وضرورتها، لابدّ من ترسيم خطوط الوحدة وسعتها؟ فهل الوحدة لا تشمل إلا من نعتقد حقّية اعتقاده، أم تسع المذاهب كلّها، بل الأديان السماوية أيضاً أو نعتبر في دائرة الوحدة معايير أخرى غير الدين، فتتّسع دائرة الوحدة؟

الذي يظهر من أدلّة لزوم الوحدة- والله أعلم - هو توسيع دائرة الوحدة إلى حدّ يستوعب جميع المذاهب الإسلامية بل وغيرها من الديانات المشتركة معها فى غاياتها -وإن قلّت- نعم، لا نعني بهذا الكلام رفع جميع الحواجز بيننا وبين من لا يؤمن بما آمنّا به ورؤية الجميع برؤية واحدة، وإنّما يلزم رسم الخطوط المشتركة والمختلفة فيها رسماً دقيقاً وتحقيق الوحدة بيننا على حسب النقاط المشتركة. فهذه المشتركات ترسم لنا المنهج الذي نتّبعه في تعاطينا كلّ من يشترك معنا في بعض الأصول أو الفروع. فمهما كثرت المشتركات، تعمّقت الوحدة وقوى التماسك والتلائم بين الطرفين. فالذي يشترك معنا في بعض القيم الإنسانية دون الأصول، غير من يدين بأكثر ما ندين به ويختلف مدى الترابط والتماسك بيننا وبين كل منهما.

فالعقل يحكم بضرورة التعاطي والتعاون بين كلّ من تجمعهم أصول مشتركة. نعم، القدر الأعلى من هذا التعاطى لا يتحقق إلا عند اشتراك الأطراف في جميع الأصول والقيم كأتباع مذهب واحد. وكلّما تضائلت دائرة المشتركات قلّ التماسك والتلائم بين الأطراف، والعكس بالعكس. وهكذا تتعمّق الوحدة كلّما ازدادت المشتركات.

أمّا الكتاب العزيز، فالذي يظهر من الآيات هو أنّها تريد أوّلاً كون الناس جميعاً ملّة واحدة؛ هي ملّة الإسلام، واجتماعهم جميعاً حول محور واحد؛ هو حبل الله واعتصامهم به. فالقرآن

يدعو البشرية جمعاء إلى الدين الحنيف الإسلامي واعتناقه وبذلك تتحقق الوحدة التي يهدفها القرآن. دراسة الآيات القرآنية تبين بوضوح أنّها تهدف إلى هداية جميع الناس بهدي الإسلام وجمعهم حول ما يضمّه الإسلام من اعتقاد وشريعة. هذه هي الغاية القصوى التي يقصدها القرآن. ولكن الحقيقة أنّ واقع الأمر لم يواكب ما طرحه القرآن، فلم يسلم من الناس إلا قليلاً منهم وتفرّق المسلمون أيضاً فرقاً تزيد العشرات. فالقرآن لم ينس هذه الواقعية ولم يترك بيان المنهج الذي يواكبها. قال الله سبحانه:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾[١].

هذا هو الهدف السامي الذي يريده القرآن. ثمّ يقول سبحانه:

﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

فانظروا إلى هذه الآيات كيف يدعو أهل الكتاب- وهم لايدينون بدين الإسلام- إلى كلمة سواء بينهم وبين المسلمين، وهي ألا يعبدوا إلا الله سبحانه ولايشركوا به شيئاً ولايتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. تشير الآية إلى مسألة التوحيد وهي الكلمة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب ولا تزيد عليها، وتدعوهم إلى الاجتماع حول هذه الحقيقة. هذا يبين لنا أنّ دائرة الوحدة تسع كلّ من آمن ببعض ما آمنّا به. فيلزم أن نتعاون وهؤلاء في سبيل تحقيق ما اتّفقنا فيه من اعتقاد أو قيم إنسانية كالحرّية أو العدالة أو.... نعم يستثنى من هذا الأصل القرآني ما إذا كان شخص أو أشخاص يشاركوننا في جزء من الأهداف الأساسية ولكنّهم يجعلونها ذريعة للوصول إلى بعض الأغراض الفاسدة المشؤومة، كما رأينا ذلك في بعض الأحداث التاريخية التي مرّت

---

١. سورة آل عمران، الآية١٠٢.

٢. سورة آل عمران، الآية٦٤.

بالمجتمعات الإسلامية. فلا يسعنا حينئذٍ أن نتوحّد حتّى في الأهداف التي نرومها. ذلك لأنّ هذه الوحدة تدسّ الانحراف والعوج فيما نقصده وقد تجعلنا نترك بعض الأصول والأسس أو نبدّلها بغيرها. وكذلك ما إذا أدّت الوحدة التكتيكية بإلحاق فساد أو ضرر أهمّ من المصلحة التي نستوفيها من خلال الوحدة أو تؤدّي إلى فوات مصالح أهمّ ممّا نكتسبه، فالوحدة هنا خلاف المصلحة التي تقضي بلزوم الوحدة، فنفس المصلحة تقضي بعدم الوحدة في هذه الصور.

أمّا قول وسيرة النبي(ص) وأهل البيت عليهم السلام، فالذي ظهر منها هو ضرورة تحقيق الوحدة الأكثرية بين أتباعهم وشيعتهم. أمّا غيرهم من المذاهب الإسلامية، فيلزم تحقيق الوحدة معهم لاستيفاء ما اشتركوا فيه كأصل الإسلام والقرآن ونبوّة النبي الخاتم و.... فإنّ هذه القيم تشترك فيها الفرق الإسلامية كلّها، وهي جميعاً تسعى إلى حيوية هذه القيم في المجتمع، فلا معنى للنزاع والفرقة وترك التعاون على هذه الأسس. أمّا خارج هذه الدائرة، أعني أتباع المذاهب والديانات الأخرى، فلم نجد من حياتهم عليهم السلام ما يبين لنا كيفية الوحدة معهم، ذلك لأنّهم لم يحكموا المجتمع الإسلامي إلا في فترة قصيرة –وهي طيلة حكم النبي(ص) والإمام علي عليه السلام– فلم يظهر لنا تعاطيهم سائر الديانات والملل. نعم روى عن النبي(ص) أنّه عقد بعض العهود مع القبائل والطوائف التي كانت تعيش في أرض الحجاز في سبيل بعض الأهداف المشتركة بينهم. فلا ضير في أن تتحقّق الوحدة بين الأمّة الإسلامية وبين غيرها في سبيل تحقيق أهداف مادّية أو معنوية إذا لم تضرّ بمصالح الأمّة.

ج.تقريب المذاهب الإسلامية

ذكرنا أنّ مسألة التقريب غير الوحدة. ونعني بها السعي والمحاولة لتقريب رؤى المذاهب من خلال البحث والحوار. فإنّ الحوار الإيجابي أفضل طريق لتقريب المذاهب وخاصّة المذاهب الإسلامية. هذا يتطلّب أن يقوم كلّ الأطراف المعنية بآداب الحوار لاستيفاء النتائج الإيجابية منه.

فمثل هذا الحوار قد يؤدّي إلى اقتناع بعض الأطراف بما يعتقد به الآخر وبذلك يحصل التقريب. وقد يدفع التصوّرات الباطلة التي غزلها ابتعاد الأطراف بعضهم البعض؛ كمسألة تحريف القرآن الذي يتّهم بها الشيعة من بعض إخوان السّنّة أو مسألة البداء التي ينكرونها على الشيعة. فلو سمعوا ما يعتقد به الشيعة من أنفسهم، لا من كتب الآخرين والقنوات والفضائيات، لرأوا أنّ الشيعة لا تعتقد بالتحريف ولا بالبداء بالمعنى الذي يثبت الجهل لله سبحانه. وكذلك يمكن أن تكون بعض الرّؤى الخاطئة لدى الشيعة بالنسبة إلى السنّة وترتفع هذه الأخطاء ضمن الحوار والتعامل. فهذه النتائج تكتسب ضمن الحوار والبحث، وبالتالي ترتفع كثير من الأوهام التي دسّتها أيادي شيطانية بين الفرق الإسلامية لتفريقها أو أدّى إليها الجهل وعدم الاطّلاع والاكتفاء بما سمعوا من هنا وهناك أو ما رأوا هنا وهناك من دون دراسة وتحقيق في المسألة. هذا هو التقريب الذي تحتاج إليه الأمّة ليكون تمهيداً لتحقيق الوحدة الشاملة بين المسلمين. فالتقريب أيضاً من ضرورات الأمّة الإسلامية لكونه تمهيداً للوحدة والائتلاف.

نتيجة البحث

تبين من جميع ما قدّمنا أنّ الوحدة والتقريب من أعظم حوائج الأمّة الإسلامية وهي اليوم أكثر حاجة إلى تحقيق هذين المفهومين لاحتشاد أعدائها وإعدادها العدّة والعُدّة في سبيل تحطيم الأمّة وتمزيقها. فالوحدة تستند إلى مبان قطعية –وهي العقل والقرآن والأخبار والسيرة– ولا تستطيع الأمّة الإسلامية اليوم أن تسترجع كرامتها وتستعيد عزّها إلا بالرجوع إلى ما دعا إليه الدين وهو التماسك والتكاتف والوحدة بين أبنائها، وبذلك تتحقق الأمّة الإسلامية الواحدة التي هي كزرع أخرج شطئه حتّى استوى على سوقه. هذه هي الأمّة المثالية التي تكون شهيدة على سائر الأمم وأسوة لها.

والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة.

٣. الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، نشر سيد الشهداء، قم، ١٤٠٥ق.

٤. جوادي الآملي، عبدالله، صهباى حج، نشر الإسراء، ط٢، ١٣٧٨ش.

٥. الحراني، حسن بن شعبة، تحف العقول، نشر جامعة المدرسين، قم، ١٤١٧ق.

٦. الخميني، روح الله، صحيفة النور، ج٢١، نشر مؤسسة نشر آثار الإمام الخميني.

٧. الطباطبايي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، نشر جماعة المدرسين، قم.

٨. العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، نشر مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٩ق.

٩. عبدالحميد بن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، نشر مكتبة آية الله مرعشى نجفي، قم، ١٤٠٤ق.

١٠. سيد قطب بن ابراهيم الشاذلي، في ظلال القرآن، نشر دار الشروق، بيروت، ١٤١٢م.

١١. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥ش.

١٢. المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار، نشر مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤ق.

١٣. المطهري، مرتضى، سيري در نهج البلاغة، ضمن مجموعة الآثار، ج١٦، نشر صدرا، ط٧، ١٣٨٥ش.